جميل نخلة المدور

١٨٦٢ – ١٩٠٧

للأستاذ كوركيس عواد

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

٤ – مؤلفاته

الذي لم يقف على شيء من ترجمة المؤلف قد يظن أنه رجل عراق ، وهذا أمر متوقع ! فإن جميل نخلة المدوّر ، عُنِيَ عناية خاصة بتاريخ العراق ، وخدمه خدمة مشكورة يحفظها له التاريخ على مدى الأيام ، ويقدرها له أبناء العربية حق قدرها ، وعلى الأخص أبناء العراق منهم

فلقد قضى ردحاً من حياته في تدوين تاريخ العراق قبل العهد الإسلامي وبعده بكتابيه : (تاريخ بابل وأشور) ، (حضارة الإسلام في دار السلام) اللذين سنخصهما بجزء من كلامنا في ما يلي من هذا المقال . ودونك لمحة عن كل من مؤلفاته :

١ – تاريخ بابل وأشور

لا نُغالي إذا قلنا إن (تاريخ بابل وأشور) هو أول كتاب ظهر من نوعه في اللغة العربية !

والذي نعهده ، أنه لم تشهد العربية منذ صدوره حتى يومنا هذا سوى كتابين في هذا الباب : أحدهما (تاريخ كلدو وأثور[1]) للعلامة المأسوف عليه السيد أدّي شير . وثانيهما رسالة بعنوان : (مقالة في مملكة أثور[2]) للعلامة البطريرك رحماني . ولم نهتد إلى غير هذه التصانيف الثلاثة باللغة العربية مما يتعلق بهذا الموضوع الواسع النطاق . مع أن الكتب الموضوعة فيه باللغات الأفرنجية تكاد لا تحصى لوفرتها !

على أن لجميل نخلة المدوّر فضل السبق في هذا الميدان ؛ فقد نشر كتابه أولاً في مقالات ظهرت على التوالي في اثنين وعشرين جزءاً من المقتطف[3] . ثم جُمعت تلك المقالات في كتاب خاص طبع ببيروت في المطبعة الأميركية سنة ١٨٧٩ في ٦٢ صفحة . ثم جُدّد طبعه بمطبعة الفوائد ببيروت سنة ١٨٩٣ في ١٢٨ صفحة

ولا نرى للتعريف بهذا الكتاب خيراً من أن نقتبس من مقدمته الفقرة التالية على لسان مؤلفها[4] :

« ... وألّفتُ هذا الكتاب في تاريخ أشور وبابل ، وقد جمعته من أشهر أقوال المؤلفين في هذا الأوان ، مما وصلوا إلى تحقيقه بعد شهادة الاختبار والعيان ؛ وقسمته إلى قسمين : أحدهما جغرافي يبين الحدود والمساحات ، والآخر تاريخي ذكرت فيه ترجمة من اشتهر من ملوكهم وعظمائهم ، وما اشتهر لهم من الفتوحات وعظائم الأعمال إلى حين انقضائهم ... »

وهذا الكتاب « وقف عليه اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي فهذّب عبارته وصحح مبانيه ، فجاء نقياً من الكلف ، بريئاً من الكلف ، قريب اللفظ على بُعد مرامه[5] »

وكم كنا نود ، لو أشار المؤلف إلى المراجع التي استند إليها في تصنيف كتابه ، التي نظنها كانت بالفرنسية ، لإجادته هذه اللغة على ما أسلفنا الكلام عليه

من صباه سنة ، فلم يتنفس بسوى انتظام اليازجي الأول في ديوان الأمير بشير الثاني حاكم لبنان

وكان قد بث في وادي النيل في عهد محمد علي . وبلغ أوجه في دولة عباس حلمي . وقد زانه شوقي وخليل وحافظ وابراهيم اليازجي ونجيب الحداد وولي الدين يكن ومصطفى لطفي المنفلوطي بأبهى حلل البيان . وإنه ليتهادى اليوم في خطوه متغنياً دوحة أبناء محمد علي الباذخة . فكأنه يستطيب أبداً صحبة الملوك . فلا تقوم له قائمة في سوى جنابهم ، ولا تنعقد فيه العزيمة وتلتهب الحياة إلا وهو بمجالسهم . شموسه مواسمهم ، كأن دولتهم دولته ، وكأن أبناءه أشياء لهم وأنداد !

(بيروت) كوركيس عواد

(١) طبع المجلدان الأول والثاني في بيروت سنة ١٩١٢ – ١٩١٣ ، والثالث فقدت مسودته في الحرب العظمى الماضية على ما انتهى إلينا .

(٢) طبعت في بيروت في (٥١) صفحة دون ذكر سنة الطبع . وهي في الأصل نشرت في المجلد الأول من مجلة « الآثار الشرقية » ، الصادرة في بيروت سنة ١٩٢٦

(٣) انظر المجلدات الثالث والرابع والخامس من المقتطف ، الصادرة في السنين ١٨٧٨ – ١٨٨١ م .

(٤) تاريخ بابل وأشور (ص ٤ من الطبعة الأولى)

(٥) المقتطف (المجلد الخامس ، ص ٥٥)

وقد وقفنا منذ زمن على بحث للعلامة الأب أنستاس مارى الكرملى عنوانه : (سلوان الأسرى فى إيوان كسرى[1]) ، فيه نظرات نقدية صائبة للأعلام الواردة فى هذا الكتاب ، ونُجهها بشيء من العنف ، إلى مؤلف الكتاب ، أو بالأحرى إلى مصححه اليازجى

ومهما يكن من أمر فإن مباحث الكتاب أضحت فى وقتنا هذا قديمة لا يركن إليها ، نظراً إلى ما دخل هذا (التاريخ) من الحقائق الجديدة التى هى ولا مراء وليدة علم الآثار . ولا يخفى أن هذا العلم قد أحرز تقدماً مدهشاً فى مختلف الميادين خلال هذه المدة التى أربت على الستين سنة ! فإذا تركنا هذه الملاحظة جانباً ، وجدنا فى الكتاب بعد ذلك دليلاً واضحاً على ما كان عليه ذلك العلم قبل أكثر من نصف قرن ! وفى معرفة ذلك فائدة جليلة لمن يبغى دراسة تاريخ العلوم

٢ — أتالا

صنّف هذه القصة الخيالية الكاتب الفرنسى الشهير شاتوبريان[2] Chateaubriand سنة ١٨٠١ م باللغة الفرنسية[3] وهى رواية انتزعها المؤلف من كتابه (عبقرية النصرانية)[4] ، ولم يكن يومئذ قد أكمله . والحادث الذى تدور عليه الرواية ورد فى أميركة الشمالية ، وذلك أن (شكتاس) أسره جيل من الناس كان عدواً لرفاقه . فحكم عليه بالإحراق ، وكانت (أتالا)[5] ابنة الزعيم الأقوى للقبيلة المعادية ، فسقت الأسير وخلصته فى الليل وفرت به إلى القفار . أما وصف المؤلف لما انتاب العشيقين من الخوف والأمل والحب ووخز الضمير الذى كان يعذب هذين الغارين الطاهرين ، فمن القطع الأدبية الرائعة ! ففى هذه القصة المؤثرة التى وصف فيها الغرام وصفاً بليغاً أوحى شاتوبريان إلى أوربة بعالم جديد . فقد ذكر البحيرات العظيمة والحراج الأبكار التى تغشى أميركة الشمالية ؛ ثم انتقل إلى وصف قبائل هنودها وعاداتهم وأخلاقهم ومعتقداتهم ، وبيّن ما بين الحياة الهمجية والحياة المدنية من التضاد ؛ فزاد ذلك بما فى الرواية من الإفادة

وقد نقلها جميل نخلة المدور إلى العربية ، وطبعها فى بيروت سنة ١٨٨٢ م

والذى نعرفه أن لهذه الرواية ثلاث ترجمات عربية أقدمهن للخورى عيسى بترو الأورشليمى الروى[1] ، ومن هذه الترجمة[2] نسخة خطية فى خزانة باريس الوطنية (Ms. 3680) ، والثانية لجميل نخلة المدور ؛ والثالثة[3] لفرح أنطون ، وقد طبعت هذه الأخيرة فى نيويورك سنة ١٩٠٨ فى ٨ + ٤٨ صفحة

٣ — التاريخ القديم

هذا الكتاب مختصر فى التاريخ ، لم يعلم مؤلفه الذى جمع مواده من مراجع مختلفة ، مبتدئاً به بسنة ٤٩٦٣ قبل الميلاد ، ومنتهياً به بسنة ٣٩٥ للميلاد ، وقد رتبه على مقدمة وثلاثة كتب ينطوى كل منها على فصول ، وسار فيه بحسب السنين

نقله جميل نخلة المدور إلى العربية ، وطبعه فى بيروت سنة ١٨٩٥ فى ٣٥٦ صفحة[4]

٤ — محاضرة الاسبوع فى دار العلوم

هذا هو أسمى مؤلفات جميل نخلة المدور ، وأعظمها شأناً ، والتعب الذى تدور عليه شهرته . فقد ألفه بطريقة ربما لم يسبقه إليها أحد فى اللغة العربية[5] اشتغل فى تصنيفه زهاء العشر سنوات . فقد نشر منه فصلاً فى المقتطف[6] سنة ١٨٨٠ بعنوان (البصرة فى خلافة المنصور) . فوطأ محرر المقتطف حينذاك لهذا الفصل بالكلمة التالية :

---

(١) المشرق (٥ [١٩٠٢] ص ٦٧٥ — ٦٧٦ بالحاشية)

(٢) ولد سنة ١٧٦٨ ومات فى باريس سنة ١٨٤٨ م .

(٣) عنوانها الفرنسى Atala

(٤) Le génie du christirnisme

(٥) يقرب هذا الاسم من اللفظة العربية « الأثلة » النبتة المعروفة التى سمى بها بعض النساء العربيات

(١) نقل إلى العربية بضعة كتب وبعض مقولاته تاريخها سنة ١٨١٢ م —

(٢) المخطوطات العربية لمكتبة النصرانية (ص ١٢٠)

(٣) فهرس دار الكتب المصرية (٧ : ٢٤٩)

(٤) فى فهرس دار الكتب (٥ : ١٠١) تفصيلات أخر عن هذا الكتاب .

(٥) هذه تشبه الطريقة التى سلكها برتلمي أحد أدباء فرنسة (١٧١٦ — ١٧٩٥ م) الذى روى على هذه الصورة سفر أحد الأجانب المدعو أناكرسيس (Anacharsis) إلى جهات اليونان قبل وفاة الاسكندر واصفاً ما يستحسنه من عادات اليونان وأخلاقهم وعلومهم . ومثله سفر تليماك Télémaque للكاتب الفرنسى فنيلون (١٦٥١ — ١٧١٥ م) وهذا الكتاب الأخير نقل إلى العربية وطبع

(٦) المقتطف (٥ [١٨٨٠] ص ١٧٧ — ١٨٠)

« هذه النبذة من كتاب قد باشر تأليفه الشاب اللبيب جميل أفندي الدوّر ... [إلى أن قال] : فنطلب له تمام التوفيق إلى إنجاز هذا الكتاب الذي لا تحصى فوائده ولا تثمن فرائده »

ولم تظهر الطبعة الأولى لهذا الكتاب إلا في سنة ١٨٨٩ م

وهنا ندع القول للمؤلف يفصح لنا عن الطريقة المثلى التي سلكها في تصنيف هذا الكتاب الخالد ، قال في المقدمة :

« هذه رسائل ، وضعت فيها عصراً من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم ، وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملأوا العالم بآثار جالهم ، وجعلت الكلام فيها لرحالة « فارسي » طوّفته معظم البلدان الإسلامية في المائة الثانية للهجرة وطوفته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد ... »

فالكتاب رسائل تبلغ العشر عدًا ، كتبها الرحالة الفارسي الخياطي من سنة ١٥٦ إلى سنة ١٨٧ للهجرة ؛ وقد سطر الأولى وهو في النهروان سنة ١٥٦ ، والثامنة وهو في بحر تونس سنة ١٨٦ ، والتاسعة وهو في المشاهد المباركة سنة ١٨٦ أيضاً . أما الرسائل السبع الباقيات فقد كتبها وهو في بغداد

وقد لخصه من خمسة وثمانين تصنيفاً تعد بحق من أسمى المؤلفات العربية القديمة الباحثة في علوم الدين واللغة والبلدان والأخبار والأدب وغير ذلك . وما لا بد من ذكره هو أنه لم يدون حقيقة أو يسطر قضية إلا أسندها في الحاشية إلى المرجع الذي أخذها عنه ، وأشار إلى الصفحة في كل مرة ينقل من هاتيك المؤلفات الخمسة والثمانين التي ألمعنا إليها . وفي هذا من المشقة ما لا يدركه إلا الذين عانوا مثل هذا التلخيص في كتاباتهم

ومن يطالع هذا الكتاب ، يدرك أن الغرض من وضعه إظهار طرف من مآثر العرب ومفاخر الإسلام أيام هرون الرشيد والبرامكة . فهو يكشف للقارئ ما كان عليه القوم من علوم وآداب وعادات ومتاجر في بغداد وغيرها من البلدان . أضف إلى ذلك أنه موضوع على منوال رحلة لرحالة متفقه بالعلوم والآداب المعروفة في ذلك الزمن ، فهو يصف المدن والمعابد والمشاهد والمباني والسفن والموانئ وهيئات الملوك والوزراء والعلماء والشعراء والمغنين وغيرهم من الرجال ، ويبين ما كانت عليه طباعهم وميولهم وأفعالهم كما وصفهم الواصفون من أبناء زمانهم المعاصرين لهم

وفي الكتاب ، من الفكاهات والنوادر والأخبار المحققة والآراء الصائبة ، ما تقر به العين وترتاح إليه النفس ، لأنه جاء فيها بألفاظ مستعذبة وعبارات بليغة

فهذه المزايا أهابت - على ما نظن - بوزارة المعارف المصرية الجليلة إلى طبعه وجعله كتاباً للمطالعة ، ولنعم ما فعلت !

وقد أبدى أحد الكتاب ارتياباً في صحة نسبة هذا الكتاب إلى جميل الدوّر ، فقال[1] : « ... وكان الشيخ ابراهيم اليازجي يصحح له (أي يصحح لجميل) ما يكتبه ، وفي أصحابهما من يرى أن حضارة الإسلام لليازجي ، وأنه نحله جميلاً في أيام إدقاع الأول وإثراء الثاني ! »

غير أننا لا نميل إلى هذا الرأي ، ولا نرى فيه ما يحملنا على تصديقه ، لأن كتاباً ينفق من العمر في تأليفه نحو من عشر سنوات مما لا يجوز أن ينحل ، خاصة وأن الشيخ ابراهيم اليازجي لم يكن بتلك الدرجة من الفاقة التي تدفعه إلى مثل هذا البذل العظيم !

٥ — مآثره

هذه هي مؤلفاته المطبوعة التي يوسع القارئ أن يرجع إليها إن شاء . ولديه تآليف غيرها لم تطبع ، ولم نقف على شيء من أمرها سوى ما ذكره العلامة الأب شيخو[2] من أن لجميل « في بيت أهله مخطوطات متفرقة أدبية وتاريخية وروائية »

ومما ورد في نهاية مقدمة كتاب حضارة الإسلام في دار السلام قوله[3] :

« ... وقد عقدت النية ، إجابة لرغبة علماء المسلمين ، ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب ، على متابعة سرد التاريخ الإسلامي في شكل هذه السلسلة من الروايات ، وتنسيقها في مثل هذا السمط من درر الآيات البينات ... »

والذي يؤسف له أن تلك النية الحسنة لم تتحقق . ولا نرى السبب في ذلك إلا اشتغاله بأمر الصحافة ، أو إلى أن يد المنون امتدت إليه فاخترمته ! ونحن واثقون من أن أمنيته لو كانت قد جرت مجرى التنفيذ لكنا نتمتع اليوم بذخائر كنز ثمين من الكتب وترفل في جنة من الأدب فيها من كل فاكهة زوجان .

(بغداد) كوركيس عواد

(١) الأعلام لخير الدين الزركلي (١ : ١٩٣)
(٢) المخطوطات العربية (ص ٢٨٧)
(٣) حضارة الاسلام (مقدمة الطبعة الثانية)